(1) أن العبـارات الأخلاقية ليسـت عبارات دلاليـة Indicative أو معبرة عن واقعة -fact stating على الرغم من كونها تبدو كذلك.

(2) أن هـذه العبـارات الأخلاقية لنظرية رسـل الانفعالية معبرة عن التمـنى optative أو الرغبة desire[1].

ثانيا: انفصال العلم عن القيـم

إلى أى حـد يمكن أن يقال أن هناك علاقةً بين العلم والأخلاق؟؟ وإذا كانت هناك علاقةٌ فهـل هـى علاقةُ انفصالٍ أم ترابط؟؟ وما معنى قولنا بأن المتعةَ خيرٌ والألمَ شرٌ؟؟ وإذا قلنا ذلك فهـل نحن نقرر شـيئًا، أم نحن نعبر عـن عاطفة يمكن التعبير عنها بصورة أكـثر صوابًا لو أنها وضعـت فى قالب لغـوى آخر؟؟ وهل يمكن أن تكون هذه التعبيرات جزءًا من لغة الأخلاق فى أبسط صورها؟؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل العلاقة بينها وبين رغبات وعواطف وإحساسات من يستعمل هذه التعبيرات علاقة أساسية، أم هى تشير إلى الرغبات والعواطف والإحساسات العامة للجنس البشرى»[2]؟؟

كل هذه التسـاؤلات تستحق أن يكون لكل تساؤل منها بحثٌ منفصلٌ داخل إطار فلسفة الأخـلاق، ولكن يمكـن أن نحاول الإجابـة عنها فى السـطور القادمة، وإن كانـت الإجابات المقدمة قد تخلو من العمق واليقين، ولذلك سـوف أقوم بدايةً بتحليل رؤية رسـل فى العلاقات القائمة بين كل من الأخلاق والعلم (المعرفة) من وجهة نظر تحليلية.

فى البـدء يريـد المؤلف فى بحثه هنـا أن يوضح حقيقة مهمة، وذلـك قبل شروعه فى تحليل انفصال العلم عن الأخلاق فى نظرية رسل الانفعالية وهى أن رسل يعد بمثابة الركيزة الأساسية الصلبة فى بناء الفلسـفة التحليلية المعاصرة، ولا يخفى على الباحث أمور منها: أن رسل فى المقام الأول هو فيلسـوف المنطق الريـاضى فى القرن العشرين بلا منازع، كما أنه فيلسـوف النزعة العلمية فى نظرية المعرفة، أكثر من كونه فيلسوفًا للأخلاق ونظرية القيمة بوجه عام.

---

(1) Dr. Ramendra: The Ethical Philosophy of Bertrand Russell, at. http://bihar.humanists.net/ethicsrussell.htm (16/4/2010)

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص97.

إذا كان رسل فيلسوفًا من فلاسفة نظرية المعرفة، فإنه قد سعى إلى المعرفة منذ صغره، فتراه يقول عنها: «وبنفس الدافع سعيت إلى المعرفة، كنت أرغب فى فهم قلوب الناس، ومعرفة السبب الذى يجعل النجوم تضيء. كما حاولت أن أتبين القوة التى قال بها فيثاغورث والتى بمقتضاها يسيطر بها العدد على فيض الكائنات، وقد حققت شيئًا من ذلك، ولكنى لم أصل إلى الكثير»[1].

كما أكد رسل على أنه إلى جانب البواعث التقليدية التى هدته إلى طريق الفلسفة، فقد كان هناك دافعان، كان لهما الأثر الأكبر عليه: أحدهما وأبقاهما أثرًا هو الرغبة فى أن يجد معرفة يمكن قبولها على أنها يقينية، وأما الآخر فكان رغبته فى أن يجد شيئًا يشبع رغباته الدينية[2]. كما أن الفلسفة فى نظره وليدة اتحاد Unity وصراع بين دافعين إنسانيين مختلفين: أحدهما دافع وجدانى يدفع بالناس إلى التصوف Mysticism، والآخر دافع إدراكى يدفع بالناس إلى العلم، ولقد فطن إلى ذلك العديد من الفلاسفة إلى ضرورة وجود العلم والتصوف»[3].

وإذا كان الأمر يبدو كذلك فإن رسل يبدأ بتعريف العلم، فيراه محاولة عن طريق الملاحظة، وإعمال العقل القائم على هذه الملاحظة لاكتشاف الحقائق الخاصة بالعالم، ثم اكتشاف القوانين التى تربط الحقائق ببعضها البعض[4]. وذلك على الرغم من كون العلم لا يهدف إلى إرساء حقائق ثابتة وعقائد أبدية، وإنما هدفه الاقتراب من الحقيقة بتقريبات متتابعة، دون أن يدعى فى أية مرحلة أنه قد وصل إلى الدقة النهائية الكاملة[5].

والعلم فى الحالات التى تصادف حسن الحظ يجعل من الممكن التنبؤ بأحداث المستقبل، والتكنيك العلمى يرتبط بهذا الوجه النظرى للعلم، ويستخدم هذا التكنيك المعرفة العلمية لتوفير الراحة ووسائل الترف التى كان يستحيل تحقيقها فيما مضى، أو التى كانت على أقل تقدير تتكلف نفقات باهظة فى العصور السابقة على عصر العلم[6].

---

(1) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، مصدر سابق، ص7.

(2) فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفى المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص23.

(3) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, George Allen and Unwin Ltd, London, Eighth Published, 1949, p.1.

(4) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص3.

(5) برتراند رسل: ألف باء النسبية، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: محمد مرسى أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص159.

(6) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص4.

يتضح من تعريف العلم الذى قدمه رسل أنه كان واحدًا من بين الفلاسفة الذين بهرهم العلم ومنجزاته، وذلك فى الوقت الذى رأى فيه افتقار الفلسفة إلى المنهج العلمى، والذى قد يحقق فيها نتائج يقينية تكون موضع اتفاق الفلاسفة جميعهم على نحو ما نجده فى العلم، مع ملاحظة أن الفيلسوف ليس عالمًا، وأن العالم ليس فيلسوفًا، بمعنى أن أحدهما لا يحل محل الآخر فى وظيفته حتى لو كان للعالم اهتمامات فلسفية أو للفيلسوف اهتمامات علمية[1].

ولذلك قارن رسل بين الفلسفة والعلم فقال: «أن الفلسفة ليست علمية لأن مناهجها التقليدية وطبيعة الموضوعات التى تتناولها لا يمكن أن تجعلها كذلك، فإذا كان العلم ينتهج المنهج العلمى فى الوصول إلى حقائقه، فإن الفلسفة تفتقر إلى هذا المنهج، وهنا جاء السؤال- ألا يمكن أن يكون للفلسفة منهج علمى؟ ثم ألا يمكن أن تكون الفلسفة علمية كما هو الحال فى العلوم الخاصة؟ وكان الرد على هذين السؤالين عند فيلسوفنا بالإيجاب[2].

ولقد أكد رسل أن العلم لا يبدأ بالفروض العريضة بل بالحقائق الفردية التى تكتشفها الملاحظة أو التجربة، ويستخلص العلم قاعدة عامة من عدد من هذه الحقائق الفردية. فإذا كانت القاعدة العامة سليمة فإن الحقائق الفردية موضوع البحث تكون مجرد أمثلة. والعلم لا يؤكد هذه القاعدة العامة بشكل مطلق ولكنه يبدأ بقبولها كافتراض صالح للعمل به، وفى حالة سلامة هذا الافتراض فإن بعض الظواهر غير الخاضعة للملاحظة حتى الآن سوف تحدث فى ظروف معينة، فإذا رأى المرء أنها تحدث فإن هذا يعتبر تأكيدًا لصحة الافتراض. وإذا لم تحدث فلابد من نبذ هذا الافتراض واختراع افتراض جديد بدلا منه[3]. ومن ثم فالعلم هنا يشجع التخلى عن البحث فى الحقيقة المطلقة، ويستبدل بها ما يمكن تسميته بالحقيقة التقنية المنتمية إلى أية نظرية يمكن استخدامها بنجاح فى الاختراعات أو التنبؤات بالمستقبل[4].

ولكن.. ما الكيفية التى صاغ بها برتراند رسل فلسفته العلمية؟؟ وإلى أى حد اصطبغت

(1) داليا سلامة على سالم: موقف رسل من الفلسفة البراجماتية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس، 2005م، ص21.

(2) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص9.

(4) المصدر السابق: ص10.

المعرفة العلمية بنظريته القيمية؟؟ وإلى أى حد حاول رسل أن يجعل الفلسفة تقبع داخل إطار المنهج العلمى؟؟

هناك حقيقة معترف بها لدى غالبية فلاسفة القيم، ألا وهى أن مجال فلسفة الأخلاق ما زال موضع خلاف بين باحثيه، لأن طبيعته وعلاقاته بغيره من العلوم مثار للخلافات بين العلماء فى شتى المدارس، وتصوره مشوب بالإبهام عند المتعلمين بوجه عام، وهو يقوم على مفاهيم وتصورات تثير النزاع والجدل بين المشتغلين به.

كما أن البحث فى مسائل القيمة لا يتمتع بدرجة واحدة من المشروعية عند بعض مذاهب الفلاسفة المحدثين، حيث تعرضت مسائل الفلسفة فى الفترة الأخيرة إلى الإنكار والجحود على يد فريق من الفلاسفة، كما تم نزع أوراق اعتمادها منها، وعزلت الفلسفة عن منصبها التقليدى لتصير وصيفة للعلم، تتسقط قضاياه وتصوراته، وتتبعها بالتحليل المنطقى أو اللغوى، دون أن يكون لها الحق فى التعبير عن مشكلات تختص بها وحدها، تبحث فى تفسيرها أو تجد حلولاً لها. وأقصد بهذا الفريق الوضعية المنطقية وبعض فلاسفة التحليل فى الفكر المعاصر، أمثال رسل، ومور، وفتجنشتين من فلاسفة التحليل، وكارناب، وآير، وشليك، وفايجل، وريشنباخ من الوضعيين المناطقة، وغيرهم الكثير، حيث يتفق هؤلاء كثيرًا أو قليلاً على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة قضايا العلوم الرياضية والتجريبية، لأن هذه القضايا هى وحدها التى تحمل معنى، وغيرها من القضايا والعبارات لغو باطل، وكلام بلا معنى[1].

وقد اعتمدت هذه التيارات الفلسفية من الوضعيين المناطقة أو فلاسفة التحليل بوجه عام، على منهج فلسفى اعتمدوا عليه جميعاً فى كتاباتهم، ألا وهو منهج التحليل، ومن خلال هذا المنهج الذى قامت على أكتافه فلسفات التحليل، وصفت الفلسفة التحليلية بأنها كانت «ثورة» فلسفية على النزعات المثالية، وقد بدأت هذه الثورة فى كيمبردج بانجلترا، وكان «مور» و«رسل» و«فتجنشتين» قادة هذه الثورة[2].

كما أن تطور العلوم الرياضية والطبيعية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

(1) صلاح قنصوه: نظرية القيم فى الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص24.

(2) محمد مهران رشوان: دراسات فى فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص23.

يعد من المصادر المهمة للحركة التحليلية، فالمتتبع لتاريخ الفلسفة يلاحظ فيما يقول رسل تيارين متعارضين فى الفلسفة - كما أشرت من قبل- أحدهما يستوحى التفكير الرياضى، والآخر متأثر إلى حد كبير بالعلوم التجريبية، وكان أفلاطون وتوما الأكوينى واسبينوزا وكانط من الممثلين للتيار الأول، بينما كان ديموقريطس وأرسطو والتجريبيون المحدثون منذ «لوك» يمثلون التيار الثانى. وجاءت المدرسة التحليلية لتعمل على استبعاد النزعة الفيثاغورية من مبادئ الرياضيات ومزج النزعة التجريبية باهتمام معين بالجوانب الاستنباطية من المعرفة الإنسانية. فأهداف هذه المدرسة أقل تأملية من الأهداف التى كان ينشدها معظم الفلاسفة فى الماضى، إلا أن بعض منجزاتها صلبة وراسخة كمنجزات رجال العلم[1].

وهناك فيما يرى رسل طريقان يمكن بهما للفلسفة أن تقام على دعائم العلم، الأول: أن ترتكز على نتائج العلم العامة، وتبحث فى إعطاء هذه النتائج عمومية ووحدة أكثر، والثانى: أن تدرس مناهج العلم، وتبحث فى تطبيقها- مع إدخال التعديلات الضرورية على مجالها الخاص. ويلاحظ رسل أن كثيرًا من الفلسفات التى استلهمت العلم قد أخذت بالطريق الأول، إلا أنه يرى أن المناهج وليست النتائج هو ما يمكن نقله على نحو مفيد من مجال العلوم الخاصة إلى مجال الفلسفة[2].

إذن العلم ينهض على المعرفة الموضوعية لا على الرغبة ولا على الحماس العاطفى، فإذا كنا نرغب فى تسخير الطبيعة فليس لنا من سبيل لتحقيق ذلك إلا بفهم الطبيعة فهمًا موضوعيًا، وبذلك يمكننا أن نتحكم فيها، وعلى هذا يصدق شعار «فرنسيس بيكون»:» لكى نسود الطبيعة ينبغى أن نعرفها». ونحن إذا أطعنا قوانين الطبيعة أمكننا أن نحكمها[3]. وعلى ذلك يظهر تأثر رسل بـ«فرنسيس بيكون» فى نظرية المعرفة وفلسفة العلم، مما جعل سانتيانا يصف رسل بأنه «فرنسيس بيكون القرن العشرين»[4].

---

(1) محمد مهران رشوان: فلسفة برتراند رسل، مرجع سابق، ص21.

(2) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.98.

وانظر أيضًا- محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984م، ص172.

(3) محمد فتحى الشنيطى: المعرفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1981م، ص29.

(4) زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص217.

كما يمكن القول بأن الفلسفة الواقعية الجديدة والتى يعد رسل من كبار روادها تنصرف باهتمامها الأكبر إلى نظرية المعرفة بدل الميتافيزيقا، وإلى الإنسان كيف يعرف ما يعرفه، فلئن كان الفلاسفة الميتافيزيقيون السابقون يعنون بإقامة بناءات فلسفية متسقة يحاول البناء الواحد منها أن يشمل الكون كله بمن فيه وما فيه كأنه حقيقة واحدة بغير تجزئة ولا فواصل، فقد جاء هؤلاء الواقعيون الجدد يفتتون المشكلات الفلسفية ليعالجوها واحدة بعد واحدة دون أن يعنوا فى كثير أو قليل بأن تكون هذه المشكلات، أو لا تكون أجزاء من مسألة واحدة كبرى، ومن هذه المشكلات الجزئية، بل فى مقدمتها وعلى رأسها مشكلة المعرفة الإنسانية كيف تكون[1].

ومن خلال المعرفة العلمية التى ينادى بها رسل نصل إلى قانون علمى، وهذا القانون يجب أن يمر بثلاث مراحل رئيسية: الأولى ملاحظة الحقائق ذات الدلالة، والثانية الوصول إلى فرض يفسر هذه الحقائق إن صح، والثالثة أن نستنبط من هذا الفرض بطريق القياس نتائج يمكن اختبارها بالملاحظة. فإذا تبينت صحة النتائج، قُبل الفرض مؤقتًا على أنه فرض صحيح، وإن كان فى العادة يحتاج إلى إجراء تعديل فيما بعد، نتيجة لكشف حقائق جديدة[2].

يؤكد رسل أن العلم فى بدايته كان راجعًا إلى الرجال الذين أحبوا العالم، كانوا يسرحون بأبصارهم فى جمال النجوم والبحر، والريح والجبل. وكان من أثر حبهم إياها، أن عقدت بهم أفكارهم. فرغبوا فى فهمها فهمًا أدق مما يتيحه مجرد التأمل الخارجى، فيقول هرقليطس: «إنَّ العالم نار لا تخمد جذوتها، يزداد وهجها بمقدار، ويخفت بمقدار» فهرقليطس وغيره من الفلاسفة الأيونيين الذين منهم أتت الشرارة الأولى للمعرفة العلمية، قد شعروا بالجمال العجيب للعالم، شعورًا أشبه بالجنون يسرى فى دمائهم، ومن قوة عاطفتهم العقلية ظهرت حركة العالم الحديث كلها[3].

من أجل هذا ينبغى أن ينظر إلى مستقبل المجتمع العلمى فى توجس، فالمجتمع العلمى فى صورته الخالصة، وهى التى كنا نحاول رسمها، لا يتسق مع البحث عن الحقيقة، ولا مع

(1) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، مرجع سابق، ص36.

(2) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص46.

(3) المصدر السابق: ص251.

الحب، ولا مع الفن، ولا مع المتعة الخالصة، ولا مع أى من هذه المثل العليا التى اعتنقها الإنسان حتى الآن، فيما عدا مثل واحد منها وهو التقشف. وليست المعرفة هى مصدر هذه الأخطار، فالمعرفة خير والجهالة شر، وليس لهذه القاعدة من شواذ فى نظر محب العالم. وليس يكمن الخطر كذلك فى المقدرة فى ذاتها ولذاتها، و إنما يكمن فى المقدرة التى تنال من أجل المقدرة، لا المقدرة من أجل الخير المخلص[1].

من خلال ما سبق يتضح أن برتراند رسل يجعل ميدان العلم منبثقًا من باطن نظرية المعرفة «الإبستمولوجيا»، ويعتمد فى بحثه كنظرية معرفية على الوضوح، وكذلك الموضوعية، فالحقيقة العلمية قائمة هناك، محايدة ومستقلة عن الإنسان، وعلى رجل العلم أن يكشف عنها النقاب[2]، وللعلم وظيفتان: فهو أولًا يجعل فى مقدرتنا أن نعلم الأشياء، وثانيًا يجعل فى مقدورنا أن نفعل الأشياء[3]. وعليها عُد رسل رائد حركة «الفلسفة العلمية» التى تريد للفلسفة أن تحقق من التقدم مثل ما أحرزه العلم، وأن تتخلى عن الكثير من المشكلات الميتافيزيقية الضخمة، لكى تقتصر على دراسة بعض المسائل المنطقية والطبيعية وفقًا للمنهج العلمى[4].

وهنا يدور التساؤل ...إذا كان هذا هو حال العلم يقوم على الملاحظة ثم الافتراض فالتجربة منتهيًا إلى قانون مفسرًا مشكلته، فما هو النهج الذى اتبعته نظرية القيمة الانفعالية هنا، من خلال كونها مؤسسة على المشاعر الذاتية والعواطف الإنسانية المتقلبة بين اللحظة والأخرى؟؟

إذا أردت هنا بحث العلاقة بين العلم أو نظرية المعرفة وفلسفة الأخلاق أو القيم، فإن رسل يحددها من خلال نصوصه الصريحة التى جاءت فى بعض من كتبه الفلسفية، حيث يقول «فغايات الحياة بالنسبة لكل فرد هى تلك الأشياء التى يرغبها رغبة عميقة، والتى يكفل له وجودها الأمن والطمأنينة، فإن كان الأمن والطمأنينة أعظم من أن يُطلبا من حياتنا الدنيا،

(1) المصدر السابق، ص253.

(2) سناء خضر: الفلسفة الخلقية والعلم، مرجع سابق، ص231.

(3) برتراند رسل: أثر العلم فى المجتمع، ترجمة / تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م، ص17.

(4) زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص217.

فلنقل أن غايات الحياة ينبغى أن تمنح البهجة والسرور والمتعة. أن هناك شائبة تشوب الرغبات الواعيـة للباحث عن المقدرة من أجل المقدرة، فهو حين يحصل على المقدرة، لا يبغى غير مزيد من المقدرة، ولا يجد الراحة فى تأمل ما لديه. ويسـتطيع العاشق والشاعر والمتصوف أن يجدوا من الرضى ما لا يسع الباحث عن المقدرة أن يجده فى أى وقت من الأوقات، لأنهم يجدون الرضى فى محبوبهم، وأما الباحث عن المقدرة فلابد من أن يكون مشغولاً أبدا بعمل جديد إذا شاء انقاذ نفسه من فراغ حياته»[1].

«لذلك فإنى أعتقد أن نعيم العاشـق - وأنا أسـتخدم هذا اللفظ فى أوسع معانيه- يفوق نعيم الطاغية، ويسـتحق مكانًا أسـمى منه بين غايات الحياة. فحين يُقبل على الموت، لن أشـعر بأنى قد عشـت عبثا. فقد رأيت الدنيا تحمر مسـاء، ورأيت الندى يتلألأ صبحا، ورأيت الثلج يلمع تحت شـمس الصقيع، لقد استفت المطر بعد العاصفة، وسـمعت الأطلنطى فى زوبعته يضرب شواطىء الصوان عند كورونول. ويستطيع العلم أن يضفى هذه المتع وغيرها من المباهج على عدد من الناس يزيد عمن يسـتطيعونها من دونه. فإن فعل فقد اسـتخدمت مقدرته فى حكمة. وأما إن سـلب الحياة لحظاتها التى إليها مرد قيمة الحياة، فالعلم لا يسـتحق الإعجاب، مهما قاد النـاس بمهارة وكياسـة فى الطريق إلى اليأس. إن مجال القيم يخـرج عن مجال العلم من حيث أن العلم بحث عن المعرفة، كما أنه بحث عن المقدرة، فيجب ألا يتطفل على مجال القيم»[2].

وأكد رسـل على ذلك القول أيضًا فيما كتبه فى التصوف والمنطق عندما قال: «إن اعتقادى هو أن الدوافع Motives الأخلاقية والدينية، كانت على الرغم من ما منحته من أنساق خيالية رائعـة Imaginative systems هـى العائق a hindrance فى طريق تقدم الفلسـفة. لذلك كان ينبغى على أولئك الذين يريدون اكتشـاف الحقيقة الفلسفية Philosophical Truth أن يقوموا باسـتبعاد الدوافـع الأخلاقية والدينية، بل إن العلم أيضًا قد تـورط بالمثل فى هذه الدوافع التى أدت إلى تعثره وإعاقته فى سبيل التقدم، ولم يتقدم العلم إلا بعد إزاحتها من على كاهله. حيث أن العلم أبقى من الأخلاق والدين، تلك هى الفلسفة التى ينبغى أن نسير عليها[3].

(1) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص254.

(2) المصدر السابق: ص ص 255،254.

(3) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, pp.97, 98.

من خلال النصوص السالفة الذكر يتضح أن رسل يرفض أن يضفى على «الأخلاق» صفة المعرفة العلمية، وذلك لأنه ليس ثمة معرفة علمية من قبيل الصدق والكذب فى الأحكام الأخلاقية، بل لا توجد مصطلحات أخلاقية تكون بمثابة كلمات نهائية[1]، ومن ناحية أخرى فإن العلم لا يستطيع أن يحسم مسائل القيمة، لأن هذه المسائل لا يمكن أن تحسم بصورة عقلية بأى حال من الأحوال، ولأنها تقع خارج نطاق الصدق والكذب. فكل معرفة هى معرفة قابلة للاكتساب، وينبغى أن تكتسب عن طريق المناهج العلمية وما لا يستطيع العلم أن يكتشفه لا يستطيع البشر أن يعرفوه[2]. فحياة الوجدان أهم من المعرفة ذاتها، فالعالم بغير بهجة وغير حب هو عالم تجرد من القيم. إن هذه الأمور يجب أن يذكرها مطبق العلم، ولو فعل، لكان عمله خيرًا خالصًا. وكل ما يطلب إنما هو ألا تسكر الناس خمر المقدرة الجديدة، فينسون تحت تأثيرها تلك الحقائق التى كانت معروفة لكل جيل من قبلهم، فليست كل الحكمة جديدة، ولا كل الحماقة قديمة[3].

وهنا كان لزامًا على الباحث أن يعرض أيضًا لمنهج الوضعية المنطقية فى صياغتهم اللغوية لعلاقة العلم بالأخلاق، حيث أنهم كما ذكرت من قبل، أصحاب الدور الرائد فى النظرية الانفعالية فى الأخلاق، فتكونت رؤيتهم القيمية من خلال منهجهم العلمى القائم على التحليل.

لقد رأت الوضعية المنطقية أن البرنامج الذى يرمى إلى إقامة الأخلاق على أساس معرفى، هو نتيجة لسوء فهم للمعرفة، وللرأى الباطل القائل أن المعرفة تنطوى على جانب معيارى[4].

لذلك كان مستخلص رؤية «هانز ريشنباخ»[*] Hans Reichenbach (1891 - 1953)

---

(1) John L. Mckenney: Concerning Russell`s Analysis of Value Judgments, in The Journal of Philosophy, vol. 55, No. 9 (Apr. 24, 1958), p.382.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص ص27،28.

(3) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص258.

(4) سناء خضر: الفلسفة الخلقية والعلم، مرجع سابق، ص231.

(*) ولد «هانز ريشنباخ» Hans Reichenbach بمدينة «هامبورج» Hamburg بألمانيا فى السادس والعشرين من شهر سبيتمبر عام 1891م، وتلقى تلعيمه فى إرلنجن Erlangen وشتوتجارت Stuttgart حيث درس الفيزياء والفلسفة، وفى عام 1926م عُيّن محاضرًا بجامعة برلين، وعندما استولى النازيون على مقاليد الحكم فى ألمانيا عام 1933م، غادر «ريشنباخ» البلاد واتجه إلى تركيا حيث قام بالتدريس بجامعة استانبول=

تكمن فى تحليله انفصال العلاقة بين العلم والأخلاق، حيث يقول فى «نشـأة الفلسـفة العلمية» The Rise of Scientific Philosophy «وهناك نتيجة نسـتطيع أن نسـتخلصها فورًا من تحليل العلـم الحديث، تلك هى أن الأخلاق لو كانت ضربًا من المعرفة، لما كانت على نحو ما أرادها الفلاسـفة الأخلاقيـون أن تكـون، أى لما كانـت تقدم توجيهـات أخلاقية. فالمعرفة تنقسـم إلى قضايـا تركيبيـة وقضايا تحليلية، والقضايـا التركيبية تنبئنا عن الأمـور الواقعة، أما القضايا التحليليـة فهى فارغة. فأى نـوع من المعرفة تكون الأخلاق؟؟ إنها لـو كانت تركيبية لكانت تنبئنـا بمعلومات عـن الأمور الواقعة، وإلى هذا النوع تنتمى الأخـلاق الوصفية التى تنبئنا عن العادات الأخلاقية لمختلف الشعوب والطبقات الاجتماعية، ومثل هذه الأخلاق تعد جزءًا من علم الاجتماع، ولكن طبيعتها ليسـت معيارية، أما لـو كانت الأخلاق معرفة تحليلية، لكانت فارغة، ولما اسـتطاعت أن تدلنا أيضًا على ما ينبغـى عمله»(1). كما أن «العبارات الأخلاقية إذا كانت تحليلية، فإنها لن تكون توجيهات أخلاقية Moral Directives»(2).

= Istanbul لمدة خمسة أعوام تقريبًا. وفى عام 1938م (قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة) رحل إلى الولايات المتحدة، حيث شغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة كليفورنيا California بلوس أنجلوس، حتى وفاته فى التاسع من أبريل عام 1953م.

وقد ذكرت زوجته «ماريا ريشنباخ» Maria Reichenbach أن زوجها كان يعتزم كتابة سيرة حياته الفكرية على نحو أكثر عمقًا، وذلك كجزء من مجلد «فلسفة ريشنباخ» فى سلسة «مكتبة الفلاسفة الأحياء» إعداد «شيلب» Schilpp، والذى كانت موضوعاته معدة بالفعل، غير أن هذا المجلد لم ير النور بسبب موت «ريشنباخ» الفجائى.

وفلسفة «ريشنباخ» فلسفة علمية لأنها أخذت من العلم منهجه التجريبى، فالمنهج العلمى عند «ريشنباخ» يعتمد على التجربة، والمنطق الرمزى والرياضيات مع رفض الرأى القائل إن أساس الرياضيات هو التجربة.

ومن أهم مؤلفاته التى تكشف عن الطابع العلمى للفلسفة هى: نظرية الاحتمال، الأسس الفلسفية لنظرية الكم، الفلسفة الحديثة للعلم، نشأة الفلسفة العلمية، الفلسفة والفيزياء، من كوبرنيقوس إلى أينشتين، نظرية النسبية والمعرفة القبلية، صياغة بديهيات نظرية النسبية وفقًا لمتصل الزمان- مكان، عناصر المنطق الرمزى، الخبرة والتنبؤ، اتجاه الزمن، فلسفة الزمان والمكان.

انظر- حسين على: فلسفة العلم عند هانز ريشنباخ، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص ص21، 22، 23، 26.

(1) هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م، ص249.

(2) Hans Reichenbach: The Nature of Ethics, in, Logical Positivism, edited by, Oswald Hanfling, Basil Blackwell, Oxford, 1981, p.224.

يستطرد «ريشنباخ» قوله فى «طبيعة النظرية الأخلاقية» فيقول «إن التحليل الحديث للمعرفة يجعل المعرفة الأخلاقية a cognitive ethics مستحيلة: فالمعرفة لا تحتوى على أية أجزاء معيارية normative، ولذلك فهى لا تستطيع بنفسها تفسير interpretation النظرية الأخلاقية، ومن هنا فإن المواذاة بين الأخلاق والمعرفة تضر بالأخلاق، لو أمكن المضى فيها، فلو كانت الفضيلة معرفة If Virtue were Knowledge لأدى ذلك إلى فقدان القواعد الأخلاقية طابعها الآمر»[1]. أضف إلى ذلك «أن المعرفة لا تستطيع أن تمدنا بصورة Form النظرية الأخلاقية، لأنها لا تستطيع أن تقدم توجيهات»[2].

ولم يقف فصل العلاقة بين العلم والأخلاق عند ريشنباخ إلى هذا الحد، بل تطور إلى أبعد من ذلك، فقرر «ريشنباخ» «أن البديهيات الأخلاقية ليست حقائق ضرورية، لأنها ليست حقائق من أية نوع. فالحقيقة صفة لقضايا أو أحكام، غير أن التعبيرات اللغوية الأخلاقية ليست قضايا أو أحكام، وإنما هى توجيهات والتوجيه لا يمكن تصنيفه على أساس أنه صواب أو خطأ، فمثل هذه الأوصاف الأخيرة لا تنطبق على التوجيه، لأن الجمل التوجيهية لها طبيعة منطقية تختلف عن طبيعة الجمل الإخبارية أو القضايا»[3].

إن الأوامر التى نستخدمها فى توجيه أشخاص غيرنا، تمثل نوعًا مهمًا من التوجيهات، فلنتأمل مثلاً الأمر «أغلق الباب» هل هذا الأمر صواب أم خطأ؟؟ إن كل ما علينا هو أن ننطق بالسؤال لكى نرى مدى خلوه من المعنى. فالقول: «أغلق الباب» لا ينبئنا بشىء عن الأمر الواقع، كما أنه لا يمثل تحصيل حاصل، أى قضية منطقية، ولن نستطيع أن نقول ماذا يكون الحال لو كان القول: «أغلق الباب» صحيحًا. فالأمر قول لغوى لا ينطبق عليه التقسيم إلى صواب أو خطأ[4].

من هنا يمكن القول أن الرؤية التى قدمها «هانز ريشنباخ» فى مجال فصل العلاقة بين العلم والأخلاق لا تختلف فى منهجها أو تحليلها المعرفى للرؤية التى قدمها «برتراند رسل»

(1) Ibid: p.225.
(2) Ibid: p.225.

(3) هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، مرجع سابق، ص252.
(4) المرجع السابق: ص ص252 - 253.

فالفيلسوفان أرجعا العبارات الأخلاقية إلى أقوال لغوية انفعالية، فكان لابد من فصل العلم عن القيمة.

وهنا يقترب رسل من «ريشنباخ» فى قول الأول «أن العنصر الأخلاقى فى رأيى، والذى يبدو واضحًا وبارزًا فى العديد من الأنساق الفلسفية المشهورة، لهو من أخطر العقبات فى سبيل انتصار المنهج العلمى فى بحث التساؤلات الفلسفية[1]. وبناءً على ما تقدم أكد رسل: «أن الأمر بحاجة إلى نظرة خلقية جديدة يحل فيها الاحترام لخير ما فى الإنسان محل الخضوع لقوى الطبيعة وإنما يكون المنهج العلمى خطرًا حيث يختفى هذا الإحترام. إن العلم الآن وقد أنقذ الإنسان من عبوديته للطبيعة، يستطيع أن يشرع فى إستنقاذه من الجانب الوضيع من نفسه الذى ورثه عن عهد العبودية لقوى الطبيعة. إن الأخطار قائمة، ولكن تفاديها مستطاع، والعقل يقدر أن المستقبل سيضيئه نور الأمل وتشرق عليه شمس الرجاء، على الأقل إلى الحد الذى يخشى معه فى المستقبل ظلمة الخوف ورهبة الشر»[2].

من خلال ما سبق يتضح أن رسل من أنصار الاتجاه الذاتى فى الأخلاق، فالقيم ما هى إلا تعبير عن حالة وجدانية، حيث يرى أنه إذا حكم الإنسان على فعل ما بأنه خير، كانت صفة الخير هذه معبرة عن رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفة موضوعية فى الفعل ذاته[3]. كما أن الأحكام التى تقرر بذاتها قيمة أخلاقية أو جمالية، فإنها جديرة بأن يكون لها بعض الوضوح بالذات، ولكنه ليس وضوحًا كبيرًا[4].

وكذلك كانت درجة الوضوح بالذات مهمة فى نظرية المعرفة، لأنه إذا ما كان للأحكام درجةً ما من الوضوح بالذات دون أن تكون صادقة، لا يلغى هذا بالضرورة كل ارتباط بين الوضوح بالذات والصدق، بل نقول فقط أنه إذا كان هناك صراعٌ فإننا نحتفظ بالحكم الأكثر وضوحًا بالذات، ونرفض الحكم الأقل وضوحًا بالذات[5].

---

(1) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.107.

(2) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص258.

(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص74.

(4) برتراند رسل: مشاكل الفلسفة، ترجمة: محمد عماد الدين إسماعيل، عطيه محمود هنا، مطبعة دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1947م، ص100.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

إذا كانـت درجـة الوضـوح بالذات تبـدو مهمة فى نظرية المعرفة كما أشـار رسـل، فإن الوضوح بالذات يختلف اختلافا كبيرًا فى فلسـفة الأخلاق، فالوضوح بالذات يتحول إلى تعبير «الذاتية»، حيث يقول رسل «إذا قال « أ » يجب عليك أن تفعل هذا، وقال «ب» كلا، بل يجب عليك أن تفعل ذلك، فإنك تعرف رأيهما فقط، وليس لديك وسيلة تعرف بها أيهما على صواب، إذا كان أحدهما على صواب. وليس أمامك مخرج من ذلك سوى أن تقول: « كلما حدث خلاف حـول ما يجب أن يُفعل، أكون أنا على صواب، ويكـون المختلفون معى على خطأ». ولكن لما كان أولئك الذين يختلفون معك سيسـوقون نفس الدعوى، فإن الجدل الأخلاقى سيكون مجرد صدام بين آراء»[1].

وعندما نفحص الأشياء التى نميل إلى وصفها بالقيمة الذاتية، نجد أنها جميعًا أشياء مرغوبًا فيها أو يستمتع بها الناس، ويصعب علينا أن نصدق أن أى شىء يكون ذا قيمة فى عالم خال من الحس، ويوحى هذا بأن «القيمة الذاتية» قد تكون مما يمكن تعريفه على أساس من الرغبة أو المتعة أو منهما معًا[2]. وعليها تكون الأخلاق عند رسل مبنية على الرغبة الذاتية لدى الشخص، على النقيض من نظرية المعرفة التى تقوم على الوضوح والموضوعية.

وفى حين جعل رسـل معيار الرغبة الذاتية كأسـاس للقيمة الأخلاقية، نجد من الفلاسـفة المعاصرين من جعل معيار المعقولية Reasonableness كأساس للقيمة الأخلاقية مثل «بيرتون بورتـر»، حيث أكـد بورتر في كتابه (الحياة الكريمة) أن المعيار المتبع فى فلسـفة الأخلاق هو معيار المعقولية - بمعنى أن النظرية الأكثر توافقاً مع العقل يحكم عليها بأنها حقيقية، وزيادة فى التخصيص، نقول أن معيار المعقولية يعنى ضرورة توافر ثلاثة شروط فى النظرية الأخلاقية.

أولاً: توافقها مع نفسها، ومع ما يترتب عليها.

ثانياً: إرتباطها بالوقائع موضع البحث، وعدم تعارضها معها .

ثالثاً: قدرتها على التزويد بأكثر التفسيرات احتمالاً للتجربة الإنسانية[3].

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص98.

(2) المصدر السابق: ص100.

(3) بيرتون بورتر: الحياة الكريمة، الجزء الأول، ترجمة: أحمد حمدى محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 11.

وينهى رسـل رأيه فى مشـكلة المعرفـة الأخلاقية إلى القـول بأنه على الرغـم من الأخلاق تتضمـن بيانات قـد تكون صحيحة أو خاطئة، وليسـت مجرد أمنيات أو نواهى، فإن أساسـها أسـاس من الشعور والإحساس، الشعور بالتحبيذ والإحسـاس بالاستمتاع أو الاكتفاء، الأول لأنه متضمن فى تعريف «الصواب» Right و«الخطأ» Wrong، والثانى لأنه يتضمن فى تعريف «القيمـة الذاتية» Intrinsic Value، إن ما نعتمد عليه فى إقناع الناس بقبول نظريتنا الأخلاقية ليس الوقائع الحسـية The Facts of Perception بل الانفعالات Emotionsوالإحساسات التى انبثقت منها مفاهيم «الصواب» و«الخطأ» و«الخير»Good و«السىء»[1].

وعليها عُـد رسـل من أنصار الاتجـاه الذاتى فى الأخلاق، فالقيم ما هـى إلا تعبير عن حالة وجدانية، حيث يرى أنه إذا حكم الإنسـان على فعل ما بأنه «خير» كانت صفة «الخير» هذه معبرة عن رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفة موضوعية فى الفعل ذاته[2].

ثالثا: الرغبة وذاتية القيم

بادىء ذى بدء يقرر رسـل هنا أن نظريته التى يتولى الدفاع عنها «تمثل شكلاً من أشكال المذهب الذى يعرف بذاتية القيم»[3]. وذاتية القيم تشـير دائمًا إلى الرغبة desire، والرغبة هى مـا قام به الفرد من أفعال، أى أنهـا عبارة عن فعل ناتج من وراء الإرادة أو الإحتياج أو القصد، لذلك كان للرغبة معنى تجريبى يتعلق بخبرة الشخص الفردية، ومعنى آخر سلوكى يتعلق بالفرد بوصفه عضوًا فى مجتمعه[4].

(1) آثرت أن أرجع فى هذا الموضع بالذات إلى المصدرين «الإنجليزى» و«الترجمة العربية» وذلك لأن الترجمة العربية ترجمت المفاهيم الحدسية بمعانى عامة وليست بمعانى أخلاقية، مثل كلمة Good التى ترجمت بمعنى «حسن» وهى تعنى فى البحث مفهوم «الخير»، وكلمة Emotions التى ترجمت بمعنى «المشاعر» وهى تعنى فى البحث بأكمله «الإنفعالات».

Bertrand Russell: Human Society In Ethics and Politics, George Allen and Unwin Ltd, London, 1963, p.118.

وانظـر الترجمة العربية:

برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص104.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص74.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص238.

(4) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, p.68.